اليربوع

الخيمة تتلاعب بها الريح، وبداخلها طفلة جائعة تنوح، الأم حائرة لا تدري ما تفعل .. الأب عندما اشتد غضبه، وأظلمت الدنيا أمام عينيه، قفز مهرولًا نحو الخلاء، حيث تراءت له الخيام في أشواط بداخلها كتل بشرية بين الحياة والموت، خيام لا تعد ولا تحصى، مزروعة وسط صحراء قاحلة وكثبان رملية.. عند نهاية كل شوط من الخيام تنتصب المشانق، تبعث الذعر والهلع في القلوب، خيام محاصرة بالأسلاك الشائكة، والجند المدججون بالسلاح المنتشرون هنا وهناك، ما أن ابتعد عن شوط من الخيام حتى تسمر مكانه، من هول ما رأى رجل طويل كالنخلة السامقة، بلون الليل، كان بين يديه سوط يلهب به ظهر عجوز، يصرخ في وجهها وهي تتأوه وتتألم:

ـ هل تتأخرين مرة أخرى أيتها الشمطاء؟

كان يجلدها بالسوط في عنف وقسوة، واصل سيره، بعد خطوات اقترب من خيمة مهترئة، أمامها يقف رجل مسن، وهو يبكي حظه السيئ ويومه التعس، وهو يردد .. (وين الغالي يا دار ...).

تركه ومضى في سبيله وتمتم قائلًا:

ـ أمثالك كثيرون بداخل هذا المعتقل، من الذين أضاعوا عقولهم وفقدوا صوابهم.

واصل سيره، التقى بشيخ مسن كانت تبدو عليه كآبة وسيما الأسى بادره قائلًا:

ـ هل أنت مريض أيها الشيخ؟

أجابه في حزن وكآبة:

ـ ليس بي مرض أيها الرجل ثم أخذ يردد (ما بي مرض غير دار العقيله وحبس القبيلة، وبعد الجبا من بلاد الوصيله). اتجه نحو الأسلاك الشائكة والجوع يمزقه، ما أن لمح جرذًا يمرق من أمامه، حتى قفز يهرول خلفه وهو يهتف به:

ـ أين تهرب مني أيها الجربوع؟

سرعان ما تحفز الجرذ ودفن نفسه في حفرته، واختفى تحت الأرض في سرداب طويل.

عثر الرجل على قطعة حديد، شرع يحفر بها ويزيل التراب بيديه .. عندما أحس بالتعب والإرهاق، انتصب واقفًا، وهو يمسح العرق الهابط على عينيه، والتفت يمنة ويسرة وهو يغمغم:

ـ الكلاب صادروا كل شيء لم يدعوا لنا ما نقتات به ..

انخرط في مواصلة الحفر، وإزالة الأتربة، وما أن وصل إلى نهاية السرداب، حتى كان اليربوع ينزوي مرتعشًا، قبض عليه بيديه كانت بطنه بيضاء وعيناه يقظتين، وشارباه يرتعشان ابتسم الرجل وهو يتمتم:

ـ يا لك من صيد ثمين ووجبة دسمة. ما أن هم أن يستدير به إلى الخلف، حتى أحسَ بعقب بندقية يسدد إلى كتفه،

بقسوة التفت إليه كان أحد الحراس «المصَوَّع» بادره الحارس في غضب:

ـ تحاول الهرب أيها الحقير أليس كذلك؟

ـ لا يا سيدي.

ضربه بأخمس البندقية على كتفه بقسوة وعنف، حتى سقط من بين يديه ذلك اليربوع، الذي ما أن وطأت أقدامه الأرض حتى أطلق ساقيه للريح، واختفى هناك، خلف الأسلاك الشائكة، صرخ في وجهه الحارس من جديد:

ـ لابد من معاقبتك أيها القذر. جرجره أمامه نحو «كابو» المعتقل بينما الرجل يردد أبيات ذلك الشيخ العجوز الذي شنقت ابنتاه أمامه في ذلك المعتقل «ما بي مرض غير دار العقيله وحبس القبيلة وبعد الجبا من بلاد الوصيله».

المواطن والمسؤول

في الصباح هرول المواطن (س) نحو مبنى الإسكان العتيق، وظل ينتظر المدير لعدة ساعات طويلة، لكنه لم يأت إلا بعد الثانية عشرة ظهرًا، ببدلته الأنيقة وسائقه الخاص، الذي كان يتبعه كظله يحمل عنه حقيبة سوداء ومفاتيح السيارة الفخمة، يبدو المدير متورم العينين، تتدلى بطنه أمامه وهو يمشي الهويني، توقف السائق عند مدخل الباب، لم يدع أحدًا يدخل على مديره، حتى أذن له بعد مضي أكثر من ساعة دخل عليه المواطن (س) وأفضى إليه بحاجته الماسة لشقة صغيرة تؤوي أسرته الفقيرة التي تقطن في ذلك الكوخ المتهالك في اللامبالاة وببساطة أجابه المدير دون أن ينظر إليه فقد كان يطَّلِع على بعض الرسائل في بريده اليومي ويوقع عليها.

ـ هل تراني الآن أوزع الشقق والبيوت السكنية.

ـ لا، ولكن ...

قاطعه المدير:

ـ إذن هيا اغرب عن وجهي ولا تضيع وقتي.

عند ذلك استشاط المواطن (س) غضبًا وبدلًا من أن ينسحب ويمضي، تقدم نحوه في عصبية، ودون أن يدري ما يفعل وجد نفسه يحمل المنضدة التي أمامه، ويقلبها رأسًا على عقب، حيث تناثرت تلك الأوراق والملفات وتطايرت في أرجاء المكتب، وقد سقط المدير من على كرسيه في رعب وفزع، وهو يصرخ ويستغيث طالبًا النجدة والإغاثة ..